في إيران يتغير النظام لكن
الإرث الجغرافي والتاريخي لا يتغير!

علي هاشم



السؤال الذي نظّم معظم التحليلات الجادّة لإيران خلال نصف القرن الماضي هو: ماذا تريد الجمهورية الإسلامية؟ إنه سؤال منطقي، لكنه ليس السؤال الصحيح. فالجمهورية الإسلامية عمرها 47 عاماً، أما إيران، ككيان سياسي حديث ومتماسك، فعمرها خمسة قرون. إن الخلط بين الاثنين أنتج ما يقارب نصف قرن من السياسات الأميركية الفاشلة، والاتفاقات المنهارة، وحرباً لم يتوقع كثيرون أن تأتي بهذا الشكل. "السؤال الأكثر فائدة هو: ماذا تريد إيران؟ ليس تلك الحكومة، ولا ذلك القائد الأعلى، بل الدولة التي تشكّلت غرائزها الاستراتيجية قبل الثورة بوقت طويل، والتي نجت من كل تغيير في النظام منذ ذلك الحين. لقد عمل الصفويون، والقاجاريون، والبهلويون، والجمهورية الإسلامية، جميعهم انطلاقاً من الإرث الجغرافي والتاريخي نفسه. تغيّرت الحكومات، لكن المنطق لم يتغيّر. تُحاط الهضبة الإيرانية بجبال زاغروس من الغرب، وجبال البرز من الشمال، وتخترقها بعض أكثر الصحارى قسوة في العالم، وتقع عند تقاطع آسيا الوسطى وجنوب آسيا والشرق الأوسط. وكل إمبراطورية برية كبرى كان عليها أن تتعامل معها، وكل قوة بحرية تطمح إلى النفوذ في المحيط الهندي كان عليها أن تحسب حساب المضيق الواقع عند طرفها الجنوبي. لقد أنتجت هذه الجغرافيا درساً ثابتاً عبر السلالات الحاكمة: لا يمكنك تأمين الداخل عبر الدفاع عن الداخل فقط. فالحكّام الذين حصروا استراتيجيتهم داخل الهضبة انتهى بهم الأمر إلى خسارة أجزاء منها، أما الذين اتجهوا إلى الخارج، وحوّلوا الهضبة من هدف إلى مركز، فقد كانوا الأكثر قدرة على الاستمرار. هرمز هو المكان الذي يصبح فيه هذا المنطق أكثر وضوحاً في الحاضر. يمر عبر ذلك المضيق نحو خُمس إمدادات النفط العالمية. وعندما تحرّكت إيران

لتقييد المرور في بداية حرب 2026، تفاعلت أسواق الطاقة قبـل أن تتوقـف ناقلـة نفط واحـدة. فدولـة لا تمتلـك أسـلحة نوويـة، ولا جيشـاً تقليـدياً قـادراً على مجـاراة الولايات المتحـدة، مـا تـزال قـادرة على تحريـك الأسـواق العالميـة بسـبب موقعهـا الجغرافي. هذا إرث جغرافي، ولا ينهار بتغيّر الحكومة. قناعات راسخة ثلاث قناعات تمرّ عبر السلوك الاستراتيجي الإيراني، بغض النظر عمّن يمسك بالسـلطة. القناعـة الأولى هي أن الضعف يدعو إلى التدخل. فقد جرّدت معاهـدة غلسـتان عـام 1813، ومعاهدة تركمانتشاي عـام 1828، إيـران من أراضٍ في القوقـاز، كمـا أن الاتفاقيـة الأنغلو ــ روسـية لعـام 1907 قسّـمت البلاد إلى منـاطق نفـوذ من دون استشـارة المسؤولين الإيرانيين. ومنذ ذلك الحين، قرأت كـل حكومـة تلـك الأحـداث باعتبارهـا تحذيراً بنيوياً: الدولة التي لا تستطيع إظهار الردع سـتجد سـيادتها تُـدار من الخـارج. والبرنامج النووي، والشبكة الإقليمية، وترسانة الصواريخ، كلها ــ على مستوى معيّن ــ تمثل استجابة لذلك التحذير. القناعة الثانية هي أن السيادة ليست قابلة للتفاوض. فقد كانت ثورة التبغ في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، وتأميم شـركة النفـط الأنغلو ــ إيرانية عام 1951، ليسا حدثين منفصلين، بل انعكاسـاً واحـداً في حقبـتين مختلفتين. وقد التقطت برقية دبلوماسـية أميركيـة عـام 1976، عنـدما كـان سـفير الولايات المتحدة لدى إيران، ريتشارد هيلمز، يقدّم إحاطة إلى هنري كيسـنجر، هـذه الفكرة بدقة: التوتر النووي موجود بسبب "رفض إيران القبـول بـأي تـدخل خـارجي قـد ينتقص من سـيادتها". وكـانت هـذه الجملـة لتناسـب بالقـدر نفسـه كـل رسـالة أُرسلت خلال المفاوضـات النوويـة في أعـوام 2015 و2021 و2026. أمـا القناعـة الثالثة، وهي الأكثر تعرضاً للتقليل من شأنها باسـتمرار، فهي أن إيـران لا تنظـر إلى نفسها بوصفها قوة إقليمية فقط. غالباً ما تُـؤطَّر ثـورة 1979 ضـمن إطـار إقليمي: تمكين الحركـات السياسـية الشـيعية، وإعـادة تنظيم أمن الخليج، وظهـور الإسـلام السياسي كقوة حاكمة. لكن التأثير من الدرجة الأولى كان عالمياً. ففي عـام واحـد، انتقلت إيران من كونها أحد أهم الشركاء الاستراتيجيين لواشنطن إلى دولـة تسـعى إلى طريق ثالث بين القوتين العظميين. لقد غيّرت أزمة الرهائن السياسـة الداخليـة الأميركية لجيل كامل. كما جذبت الحرب الإيرانيـة ــ العراقيـة أجهـزة الاسـتخبارات وصناعات السلاح لدى القوتين العظميين ومعظم أوروبا. ووصلت طائرات "شـاهد" الإيرانية المسيّرة إلى حرب أوروبية. أما صـراع 2026، فقـد حـرّك أسـواق الطاقـة العالمية، وعطّل تأمين الشحن عبر عدة مسارات بحرية، وفرض إعادة حسابات في كل اقتصاد يعتمـد على نفـط الخليج، أي معظم الاقتصـادات العالميـة. وقـال القائـد الأعلى الأسبق، آية الله روح الله الخميني، إنـه سيصـدّر الثـورة إلى الجهـات الأربـع للعالم. وكـان يعـني مـا قالـه. وتوضـح ملاحظتـان، يفصـل بينهمـا نصـف قـرن، هـذا الاستمرار بجلاء. جـاءت الأولى من العقيـد مجتـبى باشـايي، رئيس مديريـة الشـرق الأوسط في جهاز الشرطة السرية الإيرانية في ستينيات القرن الماضي، وهو يشرح

سبب دعم الشاه محمد رضا بهلـوي للأحـزاب في لبنـان: "يجب أن نكـافح ونحتـوي هذا التهديد [الناصرية] على الساحل الشرقي للبحـر المتوسـط لمنـع إراقـة الـدماء على الأراضي الإيرانية". أما الثانية، فجاءت من القائد الأعلى ، الإمام علي خـامنئي، في كانون الثاني/يناير 2016، خلال حديثه إلى عائلات الجنود الذين قُتلوا في سوريا والعراق: "لو أنهم لم يذهبوا لقتال العدو هناك، لكان العدو قد جاء إلى داخـل البلاد، ولكنا اضطررنا إلى قتاله في كرمانشاه وهمدان". المنطق واحد تمامـاً. الحكومـات فقط هي التي تغيّرت. توسيع المواجهة بدا التوجّه الغربي للشاه، من الخارج، وكأنه خروج عن هذا النمط، لكنـه لم يكن كـذلك. فقـد سـعى إلى امتلاك القـدرة النوويـة بالمنطق نفسه الذي تتبعه الجمهورية الإسلامية. كما سعى إلى الشـراكة العسـكرية مع إسرائيل. وعندما ضـغطت واشـنطن من أجـل ضـمانات نوويـة تتضـمّن إشـرافاً خارجياً، قاوم ذلك، ليس بدافع أيـديولوجي، بـل لأن قبـول مثـل هـذا الإشـراف كـان سيؤكد وضعاً تابعاً لم يتمكن أي حاكم إيراني، عبر أي قرن، من قبوله. النمط نفسه ظـاهر الآن. ففي محادثـات باكسـتان، أوضـح القائـد الأعلى، مجتـبى خـامنئي، للمسـؤولين الموجـودين في القاعـة أن إيـران لن تتفـاوض وفـق شـروط يضـعها الآخرون. دخلت واشنطن وتل أبيب حرب 2026 وهما تريدان شيئاً محدوداً: الضغط على البرنـامج النـووي، والصـواريخ، والشـبكة الإقليميـة، لكن إيـران وسّـعت إطـار المواجهة. وعندما بلغ الضغط العسكري حـداً معينـاً، أغلقت طهـران مضـيق هرمـز، محوّلة المواجهة إلى أزمة اقتصادية عالمية. في كل مرة تضع فيها واشنطن قواعـد اللعبة، تغيّر طهران أرضية اللعب نفسها. العقوبات الشـاملة، والعقوبـات الموجّهـة، وحملات الاغتيال، والحرب السيبرانية، ودعم الـوكلاء، والعمـل العسـكري المباشـر، كل هذه الوسائل جرى استخدامها، ولم يُنتج أيٌّ منها التحوّل الاستراتيجي الذي وُعـد به. بل إنها، وبثبات ينبغي اعتباره بحد ذاتـه مؤشـراً، أنتجت تسـارعاً في نـواحٍ عـدة: تطويراً نووياً أسـرع، وشـبكة إقليميـة أعمـق، ونظامـاً سياسـياً أكـثر تماسـكاً. تغيـير النظام شكّل خطاب "محور الشر" عـام 2002 أوضـح دراسـة حالـة. ففي الأشـهر التي أعقبت 11 أيلـول/سـبتمبر، تعـاونت طهـران بشـأن أفغانسـتان، وشـاركت في مـؤتمر بـون حـول المسـتقبل السياسـي للبلاد، وفتحت قنـوات غـير مباشـرة مـع واشـنطن. وقـد تحمّـل التيـار الإصـلاحي المحيـط بـالرئيس محمـد خـاتمي مخـاطر سياسية داخلية حقيقية في سبيل ذلك. وكان المسـؤولون الإيرانيـون يعتقـدون أنهم مدّوا يدهم، وأن المعاملة بالمثل ممكنـة. وقـد أظهـرت أبحـاثي الخاصـة حـول هـذه المرحلة، في "رويال هولـواي"، روايـات متّسـقة تصـف خطـاب الـرئيس الأمـيركي الأسبق جـورج دبليـو بـوش بعبـارات مشـابهة لمـا قالـه وزيـر الخارجيـة البريطـاني السابق جاك سترو: "صفعة على الوجه مقابل المخاطر الـتي خاضـوها". وفي وقت لاحق، وصـف وزيـر الخارجيـة الإيـراني الأسـبق محمـد جـواد ظريـف كيـف تحـوّلت "سياسة التعاون" إلى "سياسة مواجهة" خلال أيام. ما تلا ذلـك كـان متوقعـاً بنيويـاً.

لم تهتز قناعة الإمام الخامنئي بأن هدف واشنطن هو تغيير النظام وليس التعايش معه، بل تأكدت. تسارع البرنامج النووي، وتعاظمت الشبكة الإقليمية، واتسعت بنية الردع، ليس لأن المتشدّدين استغلوا اللحظة، بل لأن المنطق الأساسي عاد ليفرض نفسه بمجرد أن تُرك العرض من دون رد. السلوك الذي يتعرّض للضغط ليس أيديولوجياً في المقام الأول؛ إنه استراتيجي. إن مطالبة إيران بتفكيك بنية الردع الخاصة بها ليست مطالبة للجمهورية الإسلامية بالاعتدال، بل مطالبة لإيران بقبول الحالة التي ترى خمسة قرون من الخبرة أنها الحالة التي تنبع منها الكوارث. ولا يمكن لأي حكومة إيرانية أن تقدّم ذلك، لأن تقديمه سيؤكد الدرس الأساسي: الضعف يدعو إلى التدخل. وبالتالي، فإن الضغط الذي يُراد منه إنتاج تنازل، ينتج بدلاً من ذلك السلوك الذي صُمّم لإيقافه. إيران ليست مشكلة وحسب! أمضى هنري كيسنجر سنوات يدير حرب فيتنام قبل أن يستنتج أن الفيتناميين الشماليين كانوا يقاتلون من أجل شيء مختلف تماماً عمّا افترضه: الوقت، والقدرة على التحمّل، والتآكل التدريجي للإرادة السياسية الأميركية. طهران تعمل بالمنطق نفسه. فإيران لا تحاول الفوز بهذه الجولة، بل تحاول أن تبقى قادرة على الاستمرار عندما تصبح الولايات المتحدة بحاجة إلى مخرج. لم يكن خطأ كيسنجر في فيتنام هو التصعيد، بل افتراضه أن الطرف الآخر يشارك تعريفه للنصر. وتواجه إدارة ترامب الآن المأزق نفسه: فهي لا تستطيع إنهاء الحرب بشروط يمكنها الدفاع عنها داخلياً، ولا تستطيع الخروج منها من دون إطار ترفض طهران حالياً تقديمه. وكلما طال أمد المواجهة، انتشر الألم خارج إيران: إلى أسواق النفط، والشحن، وسلاسل الإمداد، والاقتصادات المعتمدة على استقرار الخليج. فهرمز لا يؤذي إيران وحدها. إن خطر الانتشار النووي حقيقي، كما أن الشبكة الإقليمية أنتجت عنفاً حقيقياً، لكن تصحيحاً تحليلياً لا يُلغي هذه المخاوف، بل يغيّر فقط الشروط التي يمكن معالجتها من خلالها. إن ترتيباً يوفّر ضمانات أمنية حقيقية، ويتعامل مع إيران باعتبارها طرفاً يملك مصالح ردع مشروعة، لا مجرد مشكلة ينبغي إدارتها، ولا يتطلب من طهران قبول وضع تابع يجعل تاريخها ذلك مستحيلاً من الناحية البنيوية، مثل هذا الترتيب لديه فرصة للاستمرار. أما الترتيب الذي يطلب من إيران قبول شروط رفضتها في كل قرن من تاريخها الحديث، فلن ينجح، بغض النظر عن الحكومة الموجودة في السلطة، لأن أي حكومة إيرانية لا تستطيع تقديم ما يمنعه منطقها الاستراتيجي الخاص".

علي هاشم صحافي وكاتب لبناني